



تأملات في حديث ألا أدلك على أبواب الخير

خطب المناسبات

محاضرة في الأردن

2020-02-10

عمان

الأردن

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين وعلى صحابته الغر الميامين أمناء دعوته وقادة ألوته وارض عنا وعنهم يا رب العالمين.

أخرج الإمام أحمد في مسنده والترمذي في سننه عن معاذ بن جبل رضي الله عنه: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج بالناس قبل غزوة تبوك، فلما أصبح، أي طلع عليه الصباح، صلى بالناس صلاة الصبح، ثم إن الناس ركبوا، وعندما طلعت الشمس نكس الناس، على أثر الدلجة، والدلجة هي الظلمة، ولزم معاذ بن جبل رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو أثره، أي يمشي خلفه، والناس تفرقت بهم ركابهم على جواد الطريق، تأكل وتنسير، جواد جمع جادة، يعني كل واحد بجادة من جادات الطريق يمشي وحده، فبينما معاذ على أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم وناقته تأكل مرة وتنسير أخرى عثرت ناقه معاذ، تعثرت بحجر أو بشيء، فكبحها بالزمام، أمسكها بالزمام، فلما كبحها بالزمام هتت حتى نفرت منها ناقه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كشف عنه قناعه، فالتفت فإذا ليس من الجيش رجل أدنى، أي أقرب، إليه من معاذ، الجيش أصبح بعيداً، الناس نكسوا، والناقه تمشي وحدها وتتعثر، فابتعدوا عنه، فبقي معاذ أقرب الجيش إليه، فناداه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يا معاذ، فقلت: لبيك يا نبي الله، قال رسول الله: ادنْ دوتك، اقترب، فلما لصقت راحلتهما إحداهما بالأخرى، يعني أصبحوا أمام بعضهم، كل على راحلته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما كنت أحسب الناس منا كمكانهم من البعد، ما كنت أتوقع أنَّ الناس تأخروا جداً عن الركب، فقال معاذ: يا نبي الله، نكس الناس فتفرقت بهم ركابهم ترتع وتنسير، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وأنا كنت ناعساً، لما رأي معاذ، الآن معاذ ينتهر الفرصة، فلما رأى معاذ بشري رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه وخلوته له، فقال: يا رسول الله، إذن لي أسألك عن كلمة قد أمرضتني وأسقيمتني وأحزنتني، شيء أخذ مني مأخذاً، فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم: سلني عما شئت، قال: يا نبي الله، حدثني بعمل يدخلني الجنة، هذا هو هم معاذ رضي الله عنه، لا أسألك عن شيء غيرها، هو سؤال واحد، هذا كافي، يعني هو يعرف ما يسأل، لا أسألك عن شيء غيرها، قال نبي الله صلى الله عليه وسلم: بخ، بخ، هذا اسم فعل باللغة العربية، هناك فعل واسم وهناك اسم فعل، اسم الفعل مثل:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ

(سورة المؤمنون: الآية 36)

{ ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَدُلُّكَ عَلَىٰ أَبْوَابِ الْخَيْرِ: الصَّوْمِ جَنَّةٌ، وَالصَّدَقَةِ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةِ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ قَالَ: ثُمَّ تَلَا تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ، حَتَّىٰ بَلَغَ يَعْْمَلُونَ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ، وَذُرُوءَ سَنَامِيهِ؟ قُلْتُ: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذُرُوءُ سَنَامِيهِ الْجِهَادُ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَكَ ذَلِكَ كُلِّهِ؟ قُلْتُ: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَأَخَذَ بِلِسَانِيهِ قَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخِذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: تَكَلَّمَ أَثْمَلَ يَا مَعَاذُ، وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَىٰ مَنَاحِرِهِمْ إِلَّا حَصَانْدُ أَلْسِنَتِهِمْ }

(أخرجه الترمذي بسند صحيح)

هذا الحديث، هذا هو حديثنا اليوم الذي سنتحدث عنه، والحديث غني، ثري، لكن هناك نقاط أحب أن أركز عليها:

لن تنال شيئاً دون أن تبذل جهداً

النقطة الأولى: معاذ بن جبل رضي الله عنه نال مرتبة رائعة جداً، صحة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو نال هذه المرتبة العظيمة، بمّ نالها؟ بجهدٍ، ما نال هذه المرتبة صحة رسول الله إلا بجهدٍ قام به، الناس نعسوا تفرقت بهم الركاب، هو قال: بقيت أتلو أثره، يعني ملخص هذه العبرة أنك لن تستطيع أن تنال شيئاً دون أن تبذل جهداً، معاذ واحد من الناس لكن هو قاوم النوم، قاوم النعاس وبقي يتلو أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هذه المرتبة بالقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم، طبعاً في أماكن أخرى هناك صحابة كثر نالوا هذه المرتبة، نتحدث هنا عن موطن الشاهد بأن الناس نعسوا وبأن معاذاً بقي يتلو أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى رأى بشرى رسول الله بين يديه وقال له: سل عما شئت.



الأمر لا تؤتى إلا بالجهد وبالبذل

إذا ملخص العبرة الأولى أن الإنسان إذا أراد أن يحصل شيئاً فعلياً أن يبذل جهداً، الأمور لا تؤتى إلا بالجهد وبالبذل، فلذلك قيل: طلب الجنة من غير عمل ذنب من الذنوب، تشبيه: طالب ذهب إلى إدارة الجامعة وهو مازال في السنة الأولى من دراسته، طرق الباب على عميد الكلية، قال له: ادخل، فدخل وقال له: أريد شهادة مستعجلة جداً! أعطني شهادة تخرج لست سنوات في دراسة الطب، هذا ذنب، سيغضب العميد، هذا ذنب أن تطلب شهادة من دون أن تعمل لها، فإذا طلب إنسان الجنة من غير عمل نهائياً فهذا ذنب من الذنوب، الجنة تحتاج إلى عمل، إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ يَسْتَهْوَوْنَ وَإِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزَنٌ يَرْتَوُونَ، يعني كأنه شيء عالٍ وصعب تحتاج لتصل إليه أن تبذل جهداً.

فإذا لمّا معاذ بن جبل حاز هذه المكانة حازها بسعي منه، لذلك قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا

(سورة الإسراء: الآية 19)



لتحقق هدفك يجب أن تسعى

ما قال: وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيًا، بل قال: (وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا) لها سعي خاص، (فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا) يعني أنت إذا أردت الطلب أو أن تكون طبيباً ينبغي أن تدرس له دراسته، وإذا أردت الربح في التجارة ينبغي أن تسعى له سعيه، لا تقل: أنا أسعى أنزل الساعة الحادية عشر أو الثانية عشر عندما استيقظ أجلس للساعة الثانية في المحل وأخرج لا أربح شيئاً، أنت لم تسع للتجارة سعيها، لها سعي خاص، يجب أن تسعى من الصباح إلى المساء حتى تحقق الربح والنجاح، فلما تقول: أريد الآخرة تسعى لها سعيها وليس سعيًا أي سعي، تحتاج إلى سعي يكافئ هذا الأجر العظيم وهذا السعي، لا بد أن نبذل من أوقاتنا، من جهدنا، لأننا الآن نطلب الآخرة.

هنا ملمح مهم:

{ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَا مِنْ أَحَدٍ يُدْخِلُهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، قِيلَ: وَلَا أَنْتَ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ

يَتَعَمَّدَنِي رَبِّي يَرْحَمَهُ }

(صحيح مسلم)

وفي القرآن نقرأ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
ادْخُلُوا الْجَنَّةَ يَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

(سورة النحل: الآية 32)

الجنة فضلٌ من الله



لا يوجد عمل يكافئ دخول الجنة

فكيف نوفق بين الآية والحديث؟ الآية (ادْخُلُوا الْجَنَّةَ) بسبب أعمالكم، لكن أعمالكم ليست ثمنًا لدخول الجنة، لأن هذا العطاء العظيم لا يكافئه شيء ولا أي عمل يكافئ الجنة، فأعمالكم سببٌ للدخول وليست ثمنًا للدخول، ساءرت مثل لأوضح الحقيقة: أب قال لابنه: إن حققت تسعين بالمئة فما فوق في الامتحان لك عندي دراجة هدية، فهذا الابن ذهب وجاء بأوراق علاماته فإذا هي واحد وتسعين بالمئة، فأمسك بالعلامات وذهب فوراً إلى بائع الدراجات قال له: تفضل أعطني الدراجة، فهذا بائع الدراجات يضحك عليه ويقول له: أعطني المال أنا لا أتعامل بالعلامات، هذه الدراجة محض فضل من أبيه، فهذا الذي تقدمه ليس ثمنًا للدراجة أنت جئت بالسبب، الثمن فضل من والدك، فحين عندما نعمل لا نعمل لنرفع ثمن الجنة، إنما نعمل لنقدم السبب أما الجنة فهي محض عطاء وفضل من الله لأنه لا يوجد عمل يكافئ دخول الجنة.

فالآن أخواننا الكرام: إذاً أول شيء فهمناه من الحديث بأن الأمر يحتاج إلى جد وإلى اجتهد كما فعل معاذ رضي الله عنه.

المؤمن يعتذر عن إخوانه ولا يكبر أخطاءهم



التمس الأعذار لإخوتك

الأمر الثاني فيه ملمح لطيف وهو لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما كنتُ أحسبُ النَّاسَ مَثًا بمكانهم من البُعدِ"، الآن معاذ بم أجاب؟ هل ذمَّ أخوته؟ هل قال له: تركوا رسول الله ومضوا؟ لا، قال له: يا نبي الله نعس الناس وتفرقت بهم الركاب، بدأ يعتذر لهم، هذا شأن المؤمن، المؤمن يعتذر عن إخوانه ولا يكبر أخطاءهم، أما المنافق أو البعيد عن الله إذا وجد نفسه حقق شيئاً صار كل الناس لا يفهمون وكلهم أخطؤوا، وأنا حققت ذلك بجهدٍ وتعبٍ وهم بعيدون! لكن معاذ بن جبل رضي الله عنه هذه المكانة التي نالها ما جعلته يستعلي، بل على العكس تماماً بكل لطف ويتواضع: يا رسول الله نعس الناس، بدأ يعتذر لهم، وأذكر هنا موقفاً مشابهاً لصحابي آخر لما خلف بعض الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن أحدهم فقال أحدهم: يَا رَسُولَ اللَّهِ حَسْبُهُ بُرْدَاهُ وَالتَّظَرُّ فِي عِطْفِيهِ، فقام واحد منهم فقال: بنس ما قلت والله ما عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا يا رسول الله، فسُرَّ رسول الله، انسر لأن هذا الصحابي يدافع عن أخيه، لا يقف موقفاً ضد أخيه، إذا التمس لهم الأعذار.

همُّ الآخرة وهموم الدنيا

أما قوله: حدثني بعمل يدخلني الجنة، أقول لكم وأقول لنفسي أولاً ما همنا؟ قل لي: ما همك أقل لك من أنت، هناك إنسان همه جمع المال، وهناك إنسان همه الآخرة، هناك إنسان على مستوى الدنيا همه الأسرة، وآخر همه عائلته وليس فقط الأسرة، يتابع أولاد خالته، أولاد عمته والعائلة الكبيرة ويتفقد الذين من حوله، وهناك إنسان همه أكبر، الفقراء والمساكين، وهناك إنسان يحمل همَّ الأمة، ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، بأسى لأساهم، يحزن لحزنهم، فكلما كبر همك كبرت عند الله، فهذا معاذ بن جبل في هذه اللحظة يريد أن يسأل عن شيء واحد، فما همُّ معاذ بهذه اللحظة؟ همه الجنة، لذلك ورد في الحديث: من جعل الهموم كلها همّاً واحداً هم آخرته ومعاذ كفاه الله الهموم كلها، هم واحد، أنت اهتم لأمر واحد الله يكفيك الباقي،

{ قال النبي صلى الله عليه وسلم: مَنْ جَعَلَ الهمومَ همّاً واحداً، هَمَّ المعادِ، كَفَاهُ اللهُ سائرَ همومِهِ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الهمومُ من أحوالِ الدنيا لَمْ

يُبَالِ اللهُ في أيِّ أَوْدِيَّتِهَا هَلَكَ }

(سنن ابن ماجة بسند حسن)



اجعل الهموم همّاً واحداً

أما الإنسان عندما يهتم لهذا الأمر ولهذا ولهذا، فالآن يتشعب، تصبح همومه كثيرة، فمعاذ بن جبل كان همه الآخرة، تقول لي: ألا نهتم للدنيا؟ الجواب: بلى، الدليل: النبي صلى الله عليه وسلم قال:

{ وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمًّا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا }

(سنن الترمذي بسند حسن)

الفرق بين المؤمن وغير المؤمن

إذاً هي هم من الهموم لكنه ليس الأكبر، كل إنسان فينا يهتم أن يؤمن مستقبل أولاده، أن يؤمن رزقه، لكن هل هو الهم الأكبر عنده؟ لا، بدليل أنه لو حال بينه وبين الوصول إلى تحقيق هذا الهم، أمر بمعصية الله يتركه فوراً لأن همه الأكبر هو الآخرة وليس الدنيا، أما من جعل همه الأكبر هو الدنيا فيعصي الله من أجل الدنيا، وهذا الفرق بين المؤمن والبعيد عن الله، ليس الفرق أبداً أن المؤمن يهتم للآخرة ويترك الدنيا، وغير المؤمن يهتم للدنيا ويترك الآخرة، لا أبداً، الاثنان لهم هم في الدنيا لكن المؤمن يعيش للآخرة فتصبح الدنيا في يده وليست في قلبه فيملكها ولا تملكه، بينما غير المؤمن همه الدنيا فيعيش لها فتملكه ولا يملكها، وتتحكم به ولا يتحكم بها، وتصبح في قلبه وليست في يده، فيبيع دينه من أجلها، هذا هو الفرق.



الزهد حالة في القلب

أما عندما فهم بعض المسلمين فهماً خاطئاً أن المؤمن يترك الدنيا، ترك الدنيا فأخذها غيره، نحن ما أمرنا أن نترك الدنيا، نحن أمرنا ألا نعمل لها وألا نجعلها أكبر الهم، وألا نعيش من أجلها، لكن دون أن نتركها، لذلك الزهد ليس حالة ظاهرة، وإنما هو حالة في القلب ودليل ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قيل له: إن أجدنا يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسناً، قال: ليس ذاك، الكبر بطر الحق وعمط الناس.

{ عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَعَمَاطُ النَّاسِ }

(صحيح مسلم)

الكبر في القلب وليس في الثياب أما عندما نفهم أن الكبر في الثياب وأن الزهد هو في الثياب الممزقة فهذا فهم عقيم في بعض العصور المتخلفة أودى بنا إلى ما وصلنا إليه.

{ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ قَسِيلَةٌ فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا }

(رواه الإمام أحمد في مسنده)

سيدنا عمر بن الخطاب يوم ذهب إلى بعض ولاياته فوجد الناس قد تركوا العمل وقد تملكها بعض غير المسلمين، فهم الفاروق رضي الله عنه المعادلة، قال لهم: كيف تفعلون ذلك؟ قالوا له: الله سخرهم لنا، كما يحتج بعض المسلمين اليوم هم يعملون عندما، قال: كيف بكم إذا أصبحتم عبيداً عندهم؟ لأن عمر رضي الله عنه فهم أن القوي هو الذي ينتج وأن الضعيف هو الذي يستهلك، فالدنيا ليست للترك ولكن الدنيا من أجل أن نعمل فيها للآخرة، فهي المطية وليست الهدف، وينبغي للإنسان أن يأخذ من دنياه لآخرته.

النبي يجيب بحسب حال السائل



أحوال الناس مختلفة

إذا معاذ بن جبل رضي الله عنه كان همه الأعظم هو دخول الجنة فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا همهم، الآن النبي صلى الله عليه وسلم يجيبه: "تؤمن بالله وباليوم الآخر وتقيم الصلاة وتعيد الله وحده لا تشرك به شيئاً حتى تموت وأنت على ذلك"، بالمناسبة أولاً النبي صلى الله عليه وسلم كان يجيب السائل على السؤال نفسه بتعدد السائلين أجوبة مختلفة وهذا متكرر في السيرة وفي السنة، يعني السؤال حدثني بعمل يدخل الجنة، قد تجد في حديث آخر غير هذا الجواب، فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يراعي حال المخاطبين فلا يجيب الغني كما يجيب الفقير، ولا يجيب معاداً كما يجيب أبا عبيدة، ولا يجيب خالداً كما يجيب عمر، لأن كل إنسان ينبغي أن يعبد الله فيما أقامه الله، فأنا إن جئتني تاجر إلى المسجد وقال لي: حدثني عن عمل مهم أفعله، لا أقول له: اذهب وصلِّ الليل، أقول له: تابع المحتاجين، وإذا جئتني إنسان متعلم أقول له: اذهب وعلم، خذ أربعة أو خمسة طلاب درسهم مجاناً وابن الأمة أنت معلم، أفدهم في مادة الرياضيات، فهذا مما يعلمنا إياه النبي صلى الله عليه وسلم وهو أن نخاطب الناس على قدر عقولهم أولاً وعلى قدر كل إنسان كيف يعبد الله، فالأم تعبد الله بتربية أولادها وتبذل زوجها، والزوجة لها عبادة والأم لها عبادة والطالب له عبادة والمعلم له عبادة والتاجر له عبادة والعالم له عبادة، أن تعبد الله فيما أقامك، فيما أقامك هذه عبادة الطرف أو عبادة الهوية كما يقال، هذا الملمح الأول.

الإيمان بالله واليوم الآخر

الملمح الثاني هنا في هذا الحديث، قال: تؤمن بالله واليوم الآخر، الإيمان بالله يحملك على طاعة الله، والإيمان باليوم الآخر يحملك على ألا تظلم مخلوقاً، لأن هناك وقوفاً بين يدي الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَقُفُّوهُمْ □ إِنَّهُمْ مُسْتَوْلُونَ

(سورة الصافات: الآية 24)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَوْرَتِكَ لَسَّالْتَهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ

(سورة الحجر: الآية 92-93)

تؤمن بالله واليوم الآخر، وما من ركنين تلازم ذكرهما في القرآن الكريم من أركان الإيمان كركني الإيمان بالله واليوم الآخر، يعني لا بد من حساب هو إله تؤمن به وسيحاسب، فإذا أيقنت أن هذا الإله يعلم ويحاسب فإنك تعد للمليون قبل أن تقدم على معصيته أو على الإضرار بخلقه، لأنه يعلم وسيحاسب، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً

(سورة الطلاق: الآية 12)



العلم والقدرة توقفانك

قال شيخنا الدكتور راتب النابلسي حفظه الله: إذا كنت تسير في مركبتك وجاءتك إشارة حمراء لماذا تقف وأنت مستعجل؟ دع الأخلاقيات والقيم فهذا شيء آخر، لكن إذا كان إنسان يحب أن يتجاوز الإشارة فلماذا وقف وهو يحب أن يتجاوزها؟ فلسفتها أنه علم أن الذي وضع القانون يصل إليه علمه من خلال الشرطي الواقف أو الكاميرا المثبتة، فسوف يعرفون أنك تجاوزت الإشارة، ثم علم أنهم بعد أن يعلموا لهم أن يعاقبوا إما بسحب الشهادة أو بفرض غرامة كبيرة، فلما علم أن العلم يصل إليه وأن القدرة تصل إليه توقف عند الإشارة الحمراء، العلم والقدرة، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا

(سورة الطلاق: الآية 12)

قدرة وعلم، لكن متى يخالف؟ الساعة الواحدة بالليل حيث لا يوجد كاميرا، ولا يوجد شرطي، يقول لك: لا أحد يراني، فيخالف لأنه أيقن لأن العلم لن يصل إلى واضعي القانون، أو بحالة ثانية: هو أقوى من واضعي القانون، فإن استطاعوا أن يعاقبوا فليعاقبوا! فانت علاقتك مع الله تعالى لما تقف تذكر أنه يعلم ويقدر، يعلم ما تصنع ويقدر أن يحاسب ويعاقب، هذه هي المعادلة، فقال: تؤمن بالله واليوم الآخر، فالله يعلم ويحاسب.

حقيقة العبادة



العبادة اسم جامع لكل ما يرضيه الله

وتقيم الصلاة وهنا اكتفى بالصلاة، مع أن أركان الإسلام إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والصوم والحج والشهادة، لكن هنا جاء بإقامة الصلاة فقط، وتعبد الله وحده لا تشرك به شيئاً، والعبادة: اسم جامع لكل ما يرضيه الله من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، وما تخلف المسلمون إلا عندما فهموا أن العبادة مقصورة على العبادات الشعائرية وهي الصلاة والصيام والحج والزكاة، ما جاء في القرآن أن هذه هي العبادة فقط، العبادة مطلقة، لكن بني الإسلام على خمس فهي أركان الإسلام لكنها ليست الإسلام كله، لا يقوم الإسلام إلا بها لكن قوامه شيء آخر، فالإسلام أركانه خمسة، لكنه بناء متكامل، لما يقول له: تعبّد الله وحده ولا تشرك به شيئاً فالعبادة في كل ميادين الحياة أن يتوجه العمل إلى الله، إذا لخصنا العبادة بكلمتين فنقول: (طاعة + حب)، والذي يطيع الله دون محبة لم يعبده، والذي يحبه ولا يطيعه لم يعبد.

فالطاعة مع الحب هي العبادة، طاعة مقرونة بالحب، وجاء بالتوحيد لا تشرك به شيئاً، فقال: يا نبي الله أعد لي، فأعادها، ثم قال: إن شئت حدثتك يا معاذ برأس الأمر وقوام الأمر وذروة السنام.

معنى التوحيد



الدين كله توحيد

الآن هناك ثلاثة أشياء متكاملة: رأس الأمر هو التوحيد، رأس الأمر، رأس الدين، هو أن تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، وقوام الأمر يعني الذي يقوم به أمر الدين هو إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وذرورة السنام هي الجهاد، التوحيد: التوحيد رأس الأمر لأن الجسد بلا رأس غير موجود، فالدين كله توحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.

{ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي عَقَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أَبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ! لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي عَقَرْتُ لَكَ، يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً {
(رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح)

ما معنى التوحيد؟ يعني أن تحسن الوجهة إلى الله، والتوحيد نوعان: المسلمون كلهم ومعهم كثير من غير المسلمين يعلمون النوع الأول من التوحيد وهو توحيد الربوبية، يعني أنه من الله، كل شيء من الله، فحتى غير المسلم قل له: من ينزل المطر؟ يقول لك: الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَقْرَأْتُمْ مَا تُدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

(سورة الزمر: الآية 38)

وهم مشركون، توحيد الربوبية نحن مشتركون به، كل الناس، إذا سألتهم من خلقك؟ الله، من الذي رزقك هذا الولد؟ الله، من يطعمك؟ الله، من يسقيك؟ الله، من أنبت الشجر؟ الله، من خلق الطير؟ الله، من خلق البحار؟ الله، هذا توحيد الربوبية، بأن كل شيء من الله، لكن نحن مقصرون، وكثير من المسلمين مقصرون في جانب الألوهية، وتوحيد الألوهية يعني الحركة المعاكسية، هو خلق ورزق وأعطى، الآن ما رد فعلك أنت؟ إلى من تتوجه؟ ينبغي أن تتوجه إلى الله، هذا توحيد الألوهية الذي نحن أو كثير من الناس مقصرون به، أن تتوجه إليه، (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله) قُلْ أَقْرَأْتُمْ مَا تُدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما دام هو الذي خلق لماذا تتوجه إلى غيره؟!

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالَّذِي يَرْجِعُ الْأَمْرَ كُلَّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ

(سورة هود: الآية 123)



التوحيد لا يتجزأ

مفارقة حادة جداً، أن تسأل إنساناً من خلقك؟ يقول لك: الله، من رزقك؟ يقول لك: الله، من يطعمك؟ الله، تسأله: الأمر بيد من؟ يقول لك: والله الأمر بيد مديري في العمل، إذا لم يرض عني يذهب رزقي، كيف هذا! عندما فهمت أن كل شيء منه فلماذا لا تتوجه إليه؟ لماذا ترى الأمر اليوم ليس بيد الله والعياذ بالله! هو الذي خلق وهو الذي رزق وهو الذي أطعم وهو الذي سقى هل يوجد غيره يتحكم بالكون؟ معاذ الله، فالناس مقصرون في التوجه، أما العنصر الأول من التوحيد موجود، هذا تقسيم مدرسي، التوحيد لا يتجزأ، التوحيد أن تعلم أنه كله من الله ثم تتوجه إلى الله وحده، هذا هو التوحيد، لكن القسم الثاني فيه تقصير عند كثير من المسلمين، لذلك ربنا عز وجل قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ

(سورة النساء: الآية 48)



الطريق إلى الله هو الطريق الصحيح

لماذا؟ أنت تريد أن تسافر من دمشق إلى حلب بالقطار، لك لقاء واجتماع مهم جداً في حلب، فالآن تريد أن تتركب القطار، ركبت فإذا بك قد أخطأت خطأ جسيماً حذرت في مقصورة ولكن هناك مقصورة درجة أولى وأنت تستطيع أن تحجز بالأولى لكي ترتاح أكثر، وتمدد قدميك، جلست بمقصورة مختلفة فجاءك من الشبان من يلهون مع بعضهم فازعجوك ولم تستطع أن تنام طول الطريق، والله خطأ لكن الطريق سالك إلى حلب وستصل إن شاء الله وستتابع اجتماعك، الأمور بخير، أخطأت خطأ ثانياً أنت جانع ثم بعد أن وصلت قيل لك: ألا تعلم أنه يوجد تقديم طعام! فلا حول ولا قوة إلا بالله هذا خطأ ولكنه يغفر لأنك وصلت إلى حلب وستأكل هناك إن شاء الله، هذه أخطاء، لكن القطار متجه إلى حلب، لكن الخطأ الذي لا يغفر أن تتركب القطار المتجه إلى درعا جنوباً، فهناك لا يوجد اجتماع وليس هناك أشخاص قد وعدتهم ولن تصل، فالذي يشرك بالله هو عملياً مشى بالطريق الخاطئ، أما المعاصي الأخرى فما دمت في الطريق إلى الله والوجهة صحيحة فمغفورة إن شاء الله، لكن أنت في طريقك إلى الله، لكن إياك أن تسير في الطريق المعاكس، (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ)، الاتجاه من هنا، حتى ولو درجة أولى لكن بالنتيجة أنت ذاهب بالطريق المعاكس، إذاً، لذلك لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: رأس الأمر إن لا إله إلا الله، رأسه، وأن قوام هذا الأمر إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

قوام الدين أن تحسن الصلة بالله ثم تحسن الاتصال بالناس



قوام الدين

الآن نحن عندنا حركتان في الحياة حركة نحو الخالق صلة وحركة نحو المخلوق إحسان، لذلك لماذا ربنا يقول كثيراً: (يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ)؟ التي هي تعبير عن الحركتين، إقامة الصلاة: هي العلاقة بالله سواءً عن طريق الصلاة التي هي الفرائض الخمسة، أو عن طريق النوافل، أو عن طريق الذكر، أو التفكير، كله صلة بالله، ما دام يحقق الصلة بالله فهو إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة: هو الإحسان إلى الناس يعني حركة عمودية نحو الخالق بالصلة، وحركة أفقية نحو المخلوقين بالإحسان، هذا هو الدين، قوامه، قوام ديننا أن تحسن صلتك بالله وأن تحسن إلى المخلوقين، الآن إذا قال لك إنسان: أنا أحسن للمخلوقين لا يوجد داعي للصلة، هذا عبث بقوام الدين، وإذا كان إنسان يقيم الصلاة ثم يسئ إلى الناس فقد عبث بقوام الدين، لا بد من الأمرين معاً، اليوم هناك دعوتان خاطئتان، الدعوة الأولى يقول لك: أنا إيماني في قلبي وانتهينا، انركني أنا أحسن للناس ماذا تريد من صلاتي انظر إلى عملي هذا خطأ كبير، والثاني يقول لك: أنا أصلي في الصف الأول ثم يغش الناس ويحتال عليهم، أيضاً عبث بقوام الدين، قوام الدين أن تحسن الصلة بالله ثم تحسن الاتصال بالناس عن طريق الإحسان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَصَلْ لِرَبِّكَ وَأَتَحَرَّ

(سورة الكوثر: الآية 2)

المفهوم الواسع للجهاد



مفهوم الجهاد أوسع من القتال

إذاً وإن قوام هذا الأمر إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، قال: وإن ذروة السنام منه الجهاد في سبيل الله، الجهاد هو بذل الجهد، الجهاد لغةً هو بذل الجهد، والقتال في سبيل الله هو جزء من الجهاد وليس الجهاد كله، وإياكم أن يتخيل أحد أنني أحاول أن أنزع من الدين الجهاد؟ لا أبداً، الجهاد بمعنى القتال في سبيل الله هو شيء مهم جداً في ديننا وما ضعفنا وما حصل بنا اليوم ما حصل إلا يوم تنازلنا عن هذه الفريضة فتركنا الجهاد في سبيل الله فجاهدوا ضدنا ثم اتهمونا بالإرهاب، أصبحوا يجاهدون ضدنا لكن بطريقتهم الخاصة، أما نحن جهادنا جهاد رفعة وجهاد عزة وجهاد نشر الحق والخير في العالمين، فأنا لا أنكر الجهاد، لكن الجهاد مفهومه أوسع من القتال حتى نكون واقعيين حتى لا نترك شيئاً منه، الجهاد هو بذل الجهد، فإذا بذلت جهدك في تعلم القرآن فهذا جهاد، وإذا بذلت جهدك في الإنفاق على الناس فهذا جهاد، وإذا بذلت جهدك في مجاهدة نفسك وهواك فهذا جهاد، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا

وقال عن القرآن الكريم: (وَجَاهِدْهُمْ بِهِ) أي بالقرآن (جَهَادًا كَبِيرًا)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جَهَادًا كَبِيرًا

(سورة الفرقان: الآية 52)

فسمى تعلم القرآن وتعليمه والعمل به جهاداً، فالجهاد هو ذروة سنام الإسلام بمعناه العام وليس بمعنى القتال فقط، والقتال في سبيل الله جزء من الجهاد في سبيل الله. ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى ابْتِغَاءِ الْخَيْرِ؟ بَزِيدِهِ، الصُّومُ جُنَّةٌ، كَمَا قُلْنَا وَاضِحَةً، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ، ثُمَّ تَلَا: (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ)

ضبط اللسان بمنهج الله

العبارة الأخيرة في النص: فَأَحَدَ لِسَانِيهِ، مَلَاكَ ذَلِكَ كُلُّهُ، يعني الذي تستطيع أن تملك به هذه الأمور مجتمعة أن تحافظ على اللسان ألا يتكلم في شيء لا يرضي الله. الإمام الغزالي في إحيائه عدّ سبع عشرة معصية للسان، غيبة ونميمة وإفتراء وكذب وبهتان وسخرية فمعاصي اللسان كثيرة فالإنسيان من عدّ كلامه من عمله فقد نجا، هذا اللسان نحن مؤاخذون عليه، هناك غيبة ونميمة وسخرية وكله حرام وواضح، لكن أيضاً باللسان يمكن أن يتكلم الإنسان بكلمة مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا تَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ سَبْعِينَ خَرِيفًا

{ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا تَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ سَبْعِينَ خَرِيفًا }
(رواه الإمام أحمد)

يعني يظهر بالإعلام يقول لك: الدين أفيون الشعوب، والدين غيبيات، أو يقول لك: أحي أنت أخلاقي لذلك أنت ضعيف، وأنت ضعيف لأنك أخلاقي، عندما يصبح الإنسان أخلاقياً يصبح ضعيفاً! أو يقول لك: الظلم من شيم النفوس، الله خلق الناس كلهم يظلمون بعضهم! يزور أخته وقد تزوجت من رجل فقير وبيتها صغير فيقول لها: كيف تعيشين في هذا البيت؟ كيف يكتفيكم الدخل؟ فتكون مع زوجها في أسعد حال فيخرج أخوها من عندها فتتدمر من زوجها ومن حياتها! فيقول لك: أنا فقط تكلمت كلمة من أجل أن ينهضوا قليلاً بنفوسهم، من أجل أن تحرك زوجها ليعمل، فيخرب بيتها!



ضبط اللسان بمنهج الله

فلذلك لما قال: وَمَلَاكَ ذَلِكَ كُلُّهُ، هو اللسان، كان سيدنا عمر وهو من هو في الجنة رضي الله عنه وأرضاه مبشر بالجنة كان يمسك بلسان نفسه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد، هذا الذي أوردني الموارد، فالإنسان ينبغي أن يضبط لسانه بمنهج الله وبشرع الله. معاذ بن جبل لما حضرته الوفاة أصابه الطاعون فأغمي عليه ثم أفاق فقال: يارب وعزتك إنك لتعلم إني لأحيك، فلما حضرته الوفاة قال: مرحباً بالموت مرحباً، زائر بعد غياب، وحبيبٌ وقد على شوق، اللهم إنك تعلم إني لم أكن أحب الدنيا لغرس الأشجار، ولا لجري الأنهار، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالركب عند خلق الذكر، اللهم فتقبل نفسي بخير ما تتقبل به نفساً مؤمنة.

نور الدين الاسلامي